وتوفي[1] في هذه السنة أيضاً الملك مسعود صلاح الدين يوسف بن أقسيس[2] بن الملك الكامل ليلة الأحد لثمانٍ خلون من شعبان، وعمره مقدار عشرين سنة بالقاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر، رحمه الله تعالى[1].

ثم دخلت سنة ستٍّ وأربعين وست مئة

ففيها استولى صاحِبُ حلب على حِمْص.

وفيها في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول صُلِبَ مملوكٌ تركي صبيٌّ بالغ كان لبعض الأمراء الصَّالحية النَّجْمية[3] يدعى السقسيني، زعموا أنه قَتَلَ سَيِّده لأمرٍ ما، فَصُلِبَ على حافَةِ نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدَّواب، وجُعِلَ وجهه مقابل الشَّرْق، وسُمِّرت يداه وعَضُداه ورجلاه، وبقي مِنْ ظهر يومِ الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ثم مات، وكان يوصف بشجاعةٍ وشهامة، ودين، وأنه غزا بعسقلان، وقَتَلَ جماعةً من الفرنج، وقتل أسداً على صِغَرِ سِنِّه.

وكان منه في صَلْبه عجائب؛ فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصَّلْب غير ممتنعٍ ولا جازع، بل مَدَّ يديه، فَسُمِّرتا، ثم سُمِّرَتْ رجلاه وهو ينظر، لم يتأوَّه، ولم يتغيَّر وجهه، ولا حَرَّك شيئاً من أعضائه. أخبرني مَنْ شاهد ذلك منه جماعةٌ، وبقي إلى أن مات صابراً ساكتاً؛ لم يئن، ولم يشتك، ولم يزد على نظره إلى رِجْليه وجانبيه، تارةً يميناً وتارة شمالاً، وتارةً ينظر إلى النَّاس، بل إنه استسقى

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب) و(س)، وإخالها زيادة من قارئ، إذ إن أسلوبها مغاير لأسلوب أبي شامة في عرض تراجمه، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣١٠ من الجزء الأول، فلعل كاتب تلك الزيادة هو كاتب هذه، والله أعلم.

(٢) له ترجمة في مفرج الكروب: ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٧٦، شفاء القلوب: ٤٢٦.

(٣) أي أمراء الصَّالح نجم الدين أيوب.

ماءً فلم يُسْقَ. وتألمت قلوبُ مَنْ عنده رحمةً وشفقة على خَلْقِ الله تعالى من أنَّه
١٨ صبيٌّ صغير وقد ابْتُلِيَ بمثل هذا البلاء، والمياه تتخرَّق بجوانبه وهو ينظر إليها، ويتحسَّر على قَطْرة منها، وهو صابرٌ على ذلك، فسبحان مَنْ له الأمر والحُكْمُ.

وأُخبرت أنَّه رئيت له منامات صالحة، ونور غَشَّاه قبل موته، وأنَّ شكواه للعطش كان في أول يومٍ، ثم سَكَنَ ذلك، فقوَّاه الله تعالى، وثبَّته وصَبَّره. وأخبرني مَنْ سَمِعَه يقول في اليوم الثاني: سقيتُ البارحة ما أذهب عني العطش. ثم لم يطلب الماء حتى مات، وصار يبصق بصقةَ رَجُلٍ رَيَّان الكبد، ويَحْذِفُ بها بعيداً.

وبقي بعد موته معلَّقاً تمام يوم الأحد، وأُنزل ضحوة يوم الاثنين من الغد، رأيته اتفاقاً وأنا مارٌّ إلى المدرسة الحُسَامية حالة إنزاله، فشاهدته وقد اسودَّتْ أعضاؤه، وتغيَّرتْ محاسِنُه، وكَثُرَ التَّرحُّم والدُّعاء له، ولعلَّه كان شهيداً ـ رحمه الله ـ فإني أُخبرت أنه دافَعَ عن نفسه أمراً لم يرضَ وقوعه به، والله يغفر لنا وله أجمعين.

ومنها: أنَّه أسرع إليه الموت تخفيفاً من الله تعالى عليه، فإنه بقي يومين وليلتين. وأُخبرت أنَّ جماعةً من الرِّجال جرى لهم مثل هذا الصَّلْب والتَّسمير، وأنَّ المنية تأخرت عنهم أياماً زيادةً في عذابهم، وكان قد أصابه في اليوم الثاني اختلالٌ، فلم يبق يحس بالألم والعطش، ولم ينتظم كلامه، بل صَدَرَتْ منه ألفاظٌ دالَّة على اختلاله، خفَّفَ الله تعالى بذلك عنه. وقد كان يُغفي أحياناً، ثم ينتبه مرعوباً لشدة الألم، فتتقطع لذلك قلوبُ النَّاظرين إليه غير أنه يذكر الله تعالى.

وأُخبرت أنَّ بعض الموكلين به سأله في غداة يوم السبت ـ أو الأحد ـ عن حاله، فكان جوابه أن قال: طَيِّب مع الله.

وبلغني أنه لما سُمِّر لم يُسْمع منه سوى كلمةٍ واحدة، وذلك أنَّ الذي سَمَّره لما وضع المِسْمَار في العَضُد صادفَ العظم، فقال له: يا فتى تجنَّب العَظْم.

وبلغني أنَّ الذي سَمَّره توفي ذلك اليوم أو الذي بعده، وهذا من عجائب ما اتفق، فأُخبر الصَّبيُّ بذلك إرادة إعلامه أنَّ الله تعالى جازاه بفعله، فقال الصَّبي وهو في تلك الشِّدَّة: هو في حِلٍّ لا ذنبَ له. أي إن الذنب لمن أمره بذلك.

وكان ـ رحمه الله ـ من أجملِ الصِّبْيان، وأحسنهم وجهاً، وأطولهم شَعْراً، قد كان ثمنه ألوفاً من الدَّراهم، وكان في حالة صلبه مكشوف الرأس، والذُّؤابة من شَعْره مسترسلةٌ خلفه، فلعبتْ بها الرِّياح، فأدارتها إلى صَدْره، فبقي يتناولها بفِيْه، يولع بها، ويتشاغلُ بالعَبَثِ بها.

وبلغني أنه قال: لي يومان ما صلَّيتُ. كالمتأسِّفِ على ما فاته من الصَّلاةِ، وبعضُهم قال: يوم علَّقوه كان صائماً، وأخبرني مَنْ أثق به أنَّه سمعه يلتمس من النَّاظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء، ففعلوا، فأراقه.

وكانت له نَفْسٌ أبية، وقوة شديدة، أخبرني جماعةٌ أنه كان يحرِّك رِجْليه وهما مُسَمَّرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى أن اتَّسعَ بُخْش[1] المِسْمارين عليهما، وصار يديرهما بمِسْماريهما، ولولا شِدَّة تعلُّق المسامير بالخشب لقلعهما البتة.

ومما قيل فيه:

ومُنْفَرِدٍ مِنْ فوق أعوادِ حَتْفِهِ ... يجودُ بنَفْسٍ صانَها خَوْفَ رَبِّهِ

بكيتُ على بادي الملاحةِ باسطِ الـ ... ـيدين كمنْ يبغي عِناقَ مُحِبِّهِ

وقلتُ:

ومُضْطَفَّةٍ أقدامُهُ شِبْه قائمٍ ... مُصَلٍّ بإخباتٍ مطيعٌ لربِّهِ

تسمَّرتِ الأعضاءُ منه فلم يُطِقْ ... سجوداً فأومأ للسُّجودِ بقَلْبِهِ

تمكَّنَتِ الآلامُ منه مسمَّراً ... بستٍّ فكانَ الموتُ أيسرَ خَطْبِهِ

---

(١) كلمة عامية عندنا بالشام بمعنى الثقب.

يُرَى واحداً والنَّاسُ من حولِ جِذْعِهِ وعطشانَ والأمواه تجري بجَنْبِهِ
فيا حسرةً[1] منهُ على شُرْبِ قَطْرَةٍ لقد طارَ ذَيَّاكَ الشَّرابُ بِلُبِّهِ
وعُريانَ إلا في غِلالة حُسْنِهِ ومكشوفَ رأسٍ سائباتٍ بِرَخْبِهِ
١٨٢ تجولُ رياحُ الجوِّ فيه وتَعْصِفُ السَّـ ـوافي عليهِ كلَّ تُرْبٍ بقُرْبِهِ
وتُشْرِقُ شمسُ الصَّيْفِ في حُرِّ وَجْهِهِ لقد زالَ ذاكَ الحُسْنُ مُذْ أَشْرَقَتْ بِهِ
مُغَيِّرةً[2] تلك المحاسِنَ إذ غدا أحقَّ بها منها فنادَتْ بحَرْبِهِ[2]
فيا لك ممنوعاً من الماءِ ضِلَّةً[3] تَفَتَّتَتِ الأكبادُ من عُظْمِ كَرْبِهِ
ويا لك مصلوباً بظُلْمٍ وقَسْوَةٍ تَقَطَّعَتِ الأحشاءُ مِنْ سوءِ صَلْبِهِ
ويَبْرُدُ في اللَّيْلِ البهيمِ فيشتكي نهاراً فلا يُشْكَى المُقِرُّ بذنبِهِ
فيا عجباً ممن أشارَ بصَلْبِهِ ألا اعجبْ وأخبِرْ عن قساوةِ قَلْبِهِ
صبيٌّ صغيرٌ فائقُ الحُسْنِ ناسِكٌ شجاع له الإقدامُ في يوم حَرْبِهِ
صَبُورٌ على هذي الشَّدائد كلِّها إلى أنْ أتاه الموتُ قاضٍ لنَحْبِهِ

وفي سنة ستٍّ وأربعين وست مئة سقطت قنطرةٌ عظيمةٌ رومية على رأس سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدمَ بسببها حوانيتُ ودورٌ كثيرة كانت عليها، ومتصلةً بها، وقعت نهاراً.

وفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع الحريق في المئذنة الشَّرْقية بجامع دمشق، فأحرق أعلاها وجميعَ ما فيها من البيوت، والمطلع جميعه، فإنه كان سقالاتٍ من خشب، وسَلِمَ الجامعُ بفضل الله تعالى ورحمته.

وبعده بأيامٍ يسيرة قَدِمَ السُّلْطان الصَّالح أيوب بن الكامل مدينة دمشق، فأقام بها، وجهَّز العساكر إلى حِمْص.

---

(١) في (ك): فيا حسرتي.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ب).

(٣) في (ب): غلة.

وفي شعبان توفي القاضي غرس[١] الدين محمد بن أبي الكرم الحَنَفي السِّنجاري[٢]، وكان نائباً في الحُكْمِ زمن الجمال المِصْري قاضي القضاة إلى أن مات.

وفي الخامس من شهر رمضان توفي بمصر الأفضل الخُونجَي[٣]؛ قاضي قضاة مصر، وكان حكيماً منطقياً، وكان الحديثُ عنه في مُدَّةِ ولايتهِ القضاء حَسَناً، سمعتُ الشيخَ ابنَ أبي الفَضْل وغيره يُثني عليه في ذلك، رحمه الله.

وجاءنا الخبر في ذي القَعْدة أنَّ الشيخ أبا عمرو بن الحاجب[٤] رحمه الله توفي بالإسكندرية[٥]، فساء ذلك مَنْ سَمِعَه من البريَّة، فإنه ـ رحمه الله ـ كان

---

(١) في (ب) و(ع): عزيز، وفي (ك) و(س) عز الدين، والمثبت من الأصل.

(٢) هو محمد بن أبي الكرم عبد الرحمن بن علوي، له ترجمة في الجواهر المضية: ٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩. والدارس: ١/ ٥١١.

(٣) هو أفضل الدين محمد بن ناماور بن عبد الملك، له ترجمة في عيون الأنباء: ٥٨٦ ـ ٥٨٧، مفرج الكروب: ٥/ ١٦٠ ـ ١٦٢، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٢٨، العبر للذهبي: ٥/ ١٩١، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٥ ـ ٢٦، الوافي بالوفيات: ٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦، طبقات الشافعية للإسنوي: ١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٦هـ)، نزهة الأنام: ١٨١، حسن المحاضرة: ١/ ٥٤١، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٦.
والخونجي: نسبة إلى خونج، ويقال لها: خونا، وهي بلد من أعمال أذربيجان بين مراغة وزنجان في طريق الري، انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٠٧.

(٤) هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، له ترجمة في وفيات الأعيان: ٣/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠، إشارة التعيين: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦، معرفة القراء الكبار: ٣/ ١٢٨٧ ـ ١٢٨٩، العبر للذهبي: ٥/ ١٨٩ ـ ١٩٠، الطالع السعيد: ٣٥٢ ـ ٣٥٧، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٤ ـ ٢٥، الوافي بالوفيات: ١٩/ ٤٨٩ ـ ٤٩٦، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٦هـ)، الديباج المذهب: ٢/ ٨٦ ـ ٨٩، نزهة الأنام: ١٨٠ ـ ١٨١، البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز آبادي: ١٤٠، غاية النهاية: ١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩، بغية الوعاة: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥، حسن المحاضرة: ١/ ٤٥٦، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، شجرة النور الزكية: ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٥) في (ك) و(ع) و(س): زيادة: في شعبان، وهو وهم، إذ إن وفاته في السادس والعشرين من شوال، كما في «وفيات الأعيان»، وغيره.

ركناً من أركان الدِّين في العِلْمِ والعمل، بارعاً في العلوم الأصولية وتحقيق عِلْم العربية، متقناً لمذهب مالك بن أنس، رحمه الله.

وكان من أذكى الأمة قريحةً، وكان ثِقَةً حُجَّة متواضعاً، عفيفاً، كثير الحياء، مُنْصِفاً، محباً لِلعِلْم وأهله، ناشراً له، محتملاً للأذى، صبوراً على البَلْوى. قَدِمَ دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة، فأقام بها مدرِّساً للمالكية، وشيخاً للمستفيدين عليه في عِلْمَي القراءات والعربية. ثم خَرَجَ هو والشيخ ابن عبد السَّلام بسبب تغيُّرِ الوقت عليهما، فسكنا بمصر، وكان خروجهما من دمشق سنة ثمانٍ وثلاثين وست مئة، وأخبرني[1] صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دُفِنَ خارج الإسكندرية في المَقْبُرة التي بين المنارة والبلد، قريب قبر الشيخ ابن أبي شامة، رحمه الله[1].

ثم دخلت سنةُ سبعٍ وأربعين وست مئة

في خلافة المستعصم. وسُلْطان دمشق الصَّالح أيوب بن الكامل مقيم بها؛ قَدِمَ إليها في أول شعبان من سنة ستٍّ، فأقام بها خمسة أشهر، ورحل منها يوم
١٨٣ الاثنين رابع محرَّم طالباً الدِّيار المِصْرية، وأمر ببناء المنارة الشَّرْقية بالجامع، وهي التي احترقت، فَعُمِرَتْ على ما هي عليه الآن.

وفي صفر وصلت الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ إليها في البحر، ونزلوا على ساحلها من جهة بُرْج دمياط، واستُشْهد من المسلمين جماعة، منهم النجم بن شيخ الإسلام[2].

ودخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائباً للسَّلطنة في عاشر ربيع الأول منها، ونزل بدرب الشَّعارين.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب).

(٢) في الأصل: شهاب الدين شيخ الإسلام، وفي (ب) ابن شيخ الإسلام، وفي (ك) و(ع) و(س): النجم بن شيخ الإسلام، وهو الموافق لما في «مرآة الزمان» (حوادث ٦٤٧هـ)، وانظر «نزهة الأنام»: ١٨٩.